رائحة البيوت

قصة بقلم عبد الستار ناصر

قبل ان يجيء السيد منهل غضبان الى « عكد المجادي » (*) كان الخوف ، هو السبب الاول في هجرة دائبة ، بدأت اثر موت الرجل الرابع من تجار اليهود ، الذين يقطنون المحلة منذ ما يقرب من خمسين سنة ، وما ان شيد بيته وتعرف الناس على بضعة اخبار سرية مفرحة عنه ، حتى عظمت رغبة الناس في التقرب منه ، كما بنوا بيوتهم قرب او لصق بيته تماما .

قالوا عن السيد منهل : انه يشفي اي مريض ، مهما عسرت علته، وانه لن يأنف عن ابداء العون لكل من يستحق ، وكانوا ـ في عكد المجادي ـ يستحقون العون دائما ، حيث ان لهذه البيوت رائحة جد كريهة فهي مزيج من النفتالين والزيت المحروق والزيتون المجفف ، ومزيج يتصاعد كالبخار في جوانب اخرى من المحلة ، قد يكون من البول وغائط الاطفال ، او من تفسخ جثث الحيوانات وروث البقر اليابس والدم ، لكن تلك الروائح وهي تمر عبر البيوت ، لم تغير في رؤوس الناس غير بضعة اوردة تنحل دون وعي منهم وتدخل في فراغاتها البكتريا ، او تعشعش في صماماتها جرثومة الغباء التي تمكنت من العقول وانسحبت الى دقائقها غير المرئية ، حتى كان من الطبيعي ان تجد ان المحلة قد تحولت الى شبه بيت واحد وعائلة واحدة ، كل من فيها عاجز وكل من فيها شبه مخبول ، كانت الرائحة تمشي في العروق ، تقتل أوردة الروح ، وتحرق في الاجساد كل ما تبقى لها من مسامات نظيفة ، ثم تسلب العقول وعيها وتوهجها .

تزايد حجم الخوف بعد موت التاجر اليهودي الرابع ، كان لموته بالنسبة لعكد المجادي ورم دافيء وخسارة رابحة في الوقت نفسه، فليس ثمة في البيوت ما يؤنسها غير زيجات البنات ـ وتلك حالة نادرة جدا ـ وموت البعض ممن نعرف ، او مجيء زائر غريب من عكد آخر ، لكن موت التاجر كان شيئا حيويا فعلا وقد مس منا شغاف القلب ،فقد اعتاد أغلبنا على شراء الثياب والملابس الداخلية بأثمان خاصة ، او بديون مؤجلة ، بل كان يعذرنا عن الدفع احيانا ، وقد اعطاني بدلتين من قماش جيد وبضعة قطع داخلية دونما ثمن ، وما كنا نفطن ـ نحن المستلبين من ابناء المحلة ـ الى عمق علاقاته مع امهاتنا ونساء محلتنا ، بل كنا نزداد له حبا وتفانيا ، كنا نجلس عند عتبة دكانه نحكي له بضعة اخبار خاصة عن بيوتنا وغرفها السرية وفراش امنا وابينا ، بل كنا ـ اذ يطعمنا مما يأكل ـ نتكلم عن نهود اختنا وخالتنا وعن ملابس امنا الداخلية والوانها ، وان توفر للبعض منا ان يرى او يعرف اي سر جديد ، لجأ مسرعا الى تاجرنا اليهودي فيحكيه بالتفصيل ، موهومين بحبه تماما ، وغائبين عن الجوع الذي ينهش قلب التاجر ، عن عينيه اللتين تكبران مع الكلمات التي ننقل عبرها كل حياتنا السرية .

اما وقد مات الان ، فقد مات فينا الحب الى رجل عشنا بين عطف عينيه واعتدنا على نقل اخبارنا اليه ، مما جعل النهار يطول علينا ، حتى عجزنا عن البكاء كلما مررنا بدكانه المغلق الكئيب .

ثمة في « عكد المجادي » انتقلت عائلتي منذ شهرين ..

اب في التسعين ، لم يكتب وصيته بعد ، وام في الرابعة والخمسين ، لم تستعمل اي مانع للحمل فأورثت ولدين فقط وتسع عشرة بنتا ، كانت اخياتي يكبرن بعضهن اشهر فقط ، وكذا بالنسبة لنا ، حيث جيء بنا في زمن لم يتعد الست عشرة سنة ، كف بعدها ابي عن ايغال شهوته في امي ، التي عرفنا فيما بعد انها مصابة بلوثة جنسية مهلكة ، حيث انها لم تكف عن الحب مذ تزوجها ابي ، كان بها جوعا يشبه جوع الحيوانات البرمائية ، لذا ، كنا ، كنا قد نشأنا جميعا نحمل هذا المرض الخفي ، نعاني من كبته حينا ، ونمارسه رغم كل العواقب حينا .. كنت وحدي من رأى امي ذات مساء وهي تدق باب السيد منهل غضبان ، وبقيت خلفها ، لكنها لما دخلت بيت السيد منهل ، رحت ابكي دون وعي ، كنت كلما شهقت بدمعي ، تدخل في جوفي حفنة من ريح حفيفة ، تحوي زنخا يجرح في قصباتي فأحاول ان اكف عن الشهيق كي امنع نفسي من اخذ رائحة الغائط والعرق المسيّح والزيتون وفواح الجلود البشرية المصابة بالامراض ، بل تهيأ لي ان ما أشمه لم يكن سوى جثة عتيقة يأكل منها كلب أجرب ، عندما التفت الى الوراء ، كان لصقي حمار خانع تسلقته جموع من النمل والذباب والقمل حتى بات هيكله أعمق سوادا من لون الذباب والنمل ، وما ان احدقت في اذنيه ـ وكانا قد غرقا في سائل يشبه الدبس المخلوط بالقير ، من جراء براز الذباب والنمل ، او تفسخ بعض القمل في داخل مسامات الاذنين ـ حتى صرخت بلوعة وحدّة ، كان على اثرها انرأيت امي تنسل من بيت السيد منهل متوهمة بأني لم افطن الى مجيئها ، بينما رآني السيد منهل ، وهمست ان وجهي بكل ملامحه قد توغل في عينيه ، وان من الصعب نسياني بعد ان رحت احدق فيه ، ثم صرخت بحرقة :

ـ يا لك من رجل دنيء ..

لم يجب عليّ ، بل راح يضحك بهدوء وفطنة ، بينما كنت اعوي فيما بين عينيه :

ـ اغرب عن وجهي ايها الحمار ..

غير انه لم يجب ايضا ، بل جاء اليّ مثل ساحر ، مما دفع بي

الى ذعر خفي ، فاخذت اهذي بين يديه وهو يجرني متأتئا :

ـ حلتني ، ماذا تريد مني ، اترك يدي ايها المخا ...

ثم وجدت نفسي بين جرمه الكبير ، هزني مثل طفل ، واغلق عيني لحظات ، ثم جرني من يدي وراح يدفعني الى بيته الغريب ، ثم عراني من ثيابي تماما ، وراح يجلدني على ظهري ، لم استطع فعل شيء ، بل رحت ابكي بدماء احسها تنزف من داخلي ، وهجست شيئا منها في رأسي ، كان وريدا او عصبا من اعصابي قد تهرأ فجاة .

وعند اول الليل حل يدي واهملني في منتصف المحلة .. حتى ظننت باني احلم حسب ، وان الذي كنت فيه ليس الا حلما سيئا كبقية ما حلمت به ، لو لم احس بآثار الجلد المبقعة .

* * *

ثم سلل الشك الى رأسي ، كنت في الخامسة عشرة ، اغرق في رائحة البيوت واحس بكل ما يدور حولي من خفايا ، توهمت اشياء لم اصل بها الى يقين ، ونسيت اشياء لم اهجس اية قيمة لها في حياتي ، كان عليّ ان اعي قوة الذعر التي تنهش في محلتنا ، العيون التي فسختها التراخوما وامحت آمالها بحياة اجمل ، البطون التي مزقها الجوع لم تجد ثمة فرصة للنهوض والعيش كما يعيش بقية الناس ، الهياكل التي ارعبتها امر الامراض ، والنفوس التي ازهقتها الكوليرا والملاريا والمسميات المخيفة .. كانت المحلة وقد جئنا اليها توحي بالموت ، كما توحي بأسوأ ما نعرف من خراب روحي ، مما جرني الى الحقد واللعنة على ابي ، وعلى امي ، اذ دفع الجوع بنا من جراء زيادة هذا النسل العائب ، الى اختيار مكان رخيص ، ولم يفطن اي منا كيف ان الموت قد تربص بنا من اول ثانية جئنا بها وها قد مر علينا قرابة شهرين او ثلاثة ، ونحن نعاني ـ كل على انفراد ـ من رائحة البيوت الواطئة ، من جنونها وهبالة الجيران ، ونتانة الطرقات التي نمشيها . لكن امي التي اصيب انفها بالزوائد اللحمية وبالتهاب الجيوب وانحراف الاغشية المخاطية ، قد حال دون ادراكها اي نار نعيش فيها ، كما انها التجأت الى السيد منهل غضبان فغدا خير عشيق يوفر طعم السعادة .. كما وبحكم السن التي يعيشها ابي وبحكم افلاسه ايضا ، كانت الروائح شيئا لم يلتفت اليه او يعبأ به ، وبات علينا نحن الابناء ، ان نموت ببطء وهدوء ، مرتدين ثيابنا التي تتهرأ يوما بعد يوم ، ومرتدين الحزن والبكاء والقهر المر ..

ومهما زيّد الطين بلة ، او زيد النار فينا ، رغبة اختي « فرحة » في ان ترى السيد منهل غضبان عله يشفيها من مرض خبيث الم بها ، لم تعرفه سوى امي ـ وانا ـ ذلك ان اختي بعد ان غرقت كأمها في جوع جنسي وفورة جسدية طافحة ، اعطت نفسها الى كلب هادىء من الكلاب السائبة ، كان يلحس فخذيها ويلطع في خديها قرب الشفتين ، ويلوك بين فكيه جسمها البض الشهي ، حيث يزداد رغبة بها كلما اعطته قطعة لحم صغيرة ، ثم اذا بها تمارس النوم الى جانبه ، ولم تستطع ان تفارقه طوال شهرين ، حتى انها لتصرخ في همس جد غريب كأنها تمارس الحب سرا . وها هي ذي تحس باوجاع لم تألفها في جلد انسان من قبل ، مما دعانا جميعا الى الرثاء لها ، غافرين دناءة هذا الفعل الذي اقترفته اعز اخت لنا .

وما كان لي ان ارفض الذهاب وإياها ، الى بيت السيد منهل غضبان ، غير اني ، لعدة اسباب موجعة ، لم استطع دخول بيته ، سيما وقد تحسست آثار السوط على ظهري ، ولما رآني برفقة اختي الجميلة ، كشر عن اسنانه القوية ، وقال بهمس عدواني :

ـ ادخل ، ادخل ، ما بالك ايها العزيز ؟

تمنيت ان ادق عنقه بفاس ، تهيأ لي في ثانية : ان السيد منهل يركن تحت حذائي وانا امزقه بين الكعبين ، تهيأ لي ان عينيه قد تشوهتا من التمثيل به ، لكن السيد منهل وقد رأى اختي تدخل ، يردد في اذني بشراهة وقبح :

ـ ما بالك ايها القط الجميل ؟ قلت لك ادخل ، ادخل .

نفذت في انفي روائح الخل والزعتر ، كما تسلقت رأسي نتف من رائحة البيوت اللصيقة بي ، كنت احدس ما ياكلون ، تلح الروائح على عبور الجدران كي تصل الى عروقي ، لتصب فيها قرفا لم اعتد عليه ، كانت اختي « فرحة » قد اصبحت في بيت السيد منهل ، وبات من الصعب ان افعل اي شيء ، وبقيت خانعا تحت رائحة الاطعمة الرخيصة الممزوجة بالثوم والخل والبصل ، والتي يتبخر منها فواح التكلس الملحي المنثور على صفحة المقلاة ، وبكتريا الكرفس والبقدونس احسها تتسابق نحوي ، كأنها تطردني عن بيت السيد منهل .

كانت اختي الجميلة في غرفته الخاصة ، قد تحولت الى امرأة ، عدت بها الى البيت وانا احدق في بقع الدم التي تخثرت عند المفصل ، ولم اتبين قباحة الصفة التي نعتوني بها ، غير اني لم ازل احس بالعيب كلما صرخت امي :

ـ اخرج ، ايها القواد الصغير .

عدت الى البيت ، وانا احدق في بقع الدم .. لكن تلك البقع الحمراء لم تزل تنخر فيّ ، كأنها تذكرني بصغري وطفولتي .

* * *

تسلقت ممرا ترابيا ..

رأيت طفلين متسخين ، يلعبان بكومتين من الرمل ، كنت احس برائحة الحجارة والرمل ، رأيت عن بعد فائق بيت منهل غضبان ، فتحت عينيّ على اتساعهما فلمحت الطفلين يتبولان على التمثالين المصنوعين من الرمل المبلل . لا ادري كيف تسرب السائل البولي الى انفي ، رويدا ، تهيأ لي بأني ادوخ ، كان البول يسري في ادق مساماتي المريضة ، يتسلق اوردتي ، كأني غرقت فجاة في نهر متسخ موبوء ، وما ان فتحت انفي بقوة حتى وقعت مقميا عليّ ، ولم اعد احس بشيء ..

فجاة ، وكان الذعر قد تناثر في عيني ، رأيت اعلى رأسي ، وجهين مألوفين عندي ، السيد منهل غضبان يغرس عينيه الى اعمق وجداني ، كأنه يهمس في ثغرة دميّة من جسدي :

ـ ها انت معي : كيف تراك تهرب من هذا الموت ؟

كان لصقه اخي الذي يصغرني بتسعة اشهر ، يبكي بغباء ودعة ، حاولت ان احرك نفسي لكن السيد غضبان قال بغلظة آمرة :

ـ الى اين ، لم افحصك بعد ؟

قال اخي :

ـ ان امي هنا ، في الغرفة الثانية .

ضحك السيد غضبان وردد من بين اسنانه :

ـ امك في الغرفة الثانية ، هل سمعت ؟

كنت اريد الخروج بأيما ثمن ، اشك ان يجيء الصباح ثانية وانا بين يديه . لم احس خوفا كالذي رماني به السيد منهل ، الوجه الذي يحدق بي ، ارى عظامه من خلف الجلد المتقفص ، اليدين اللتين يمدهما اليّ ، مشنقة جاهزة لقتلي ، ان الذعر الذي اعيشه ، متوفر في عيني اخي ، في امي التي يستعبدها السيد ، في اختي التي رجموني بعد زوال بكارتها ، اتوهم هذا واحس بخوفي اعنف مما كان .

ـ اهدأ ، ماذا جرى لك ايها الاهبل ؟

صرخت به ، كنت اهفو الى رؤية امي ، علها تنقذني من بين يديه :

ـ ماذا تريد مني ؟

وبحرقة الذل الذي تربص بي ، صرخت بصوت اعلى :

ـ اين امي ؟ قل لها ان تجيء .. ان امي هنا ، هل تراك تريد قتلي؟ اريد ان اخرج .

كان يضحك مني وهو يمد يديه بحبة بيضاء وكأس من الماء :

ـ خذ ، واهدأ ايها الطفل المدلل .

ولم اعد احتمل الخوف ، كسرت الكأس ، ورميت بالحبة البيضاء ، وهربت من غرفته الى الغرفة الثانية ، بيد اني لم الق امي ، نزلت السلم وكدت اقع عند اوله ، غير اني تصلبت ، ورحت بلهفة جد غريبة ، احس برعشة في بدني ورعشة في عضوي ، وانا ارى نفسي خارج البيت ، ثم اخذت اركض دون جدوى ، حتى قطعت شوطا من الجهد والامتار ، وفجأة ، رحت ابكي كأية انثى تغتصب .

وغرقت في الكآبة مثل طفل هارب من ابويه .

★ ★ ★

رق فيّ هاجس الى حماية نفسي من ترهات عكد المجادي ، ادركت ان بقائي هنا لشهرين اخرين ، قد يجفف ما تبقى من الحب الذي اخزنه في الروح .

كان اليهود ، الذين يسكنون في اول المحلة ، غائبين تماما عن المعاناة التي يعيشها اهل العكد ، حيث ان تيارا نقيا من الهواء يمر عليهم من الشارع الرئيسي ،فيحمي انوفهم واعضاءهم من ايما مرض سيىء ،لكن الكثيرين من تجارهم تمكنوا من رصدالمرض الذي يفتك فينا، وقد جرونا الى العواء على ابوابهم مستجدين العقاقير الطبية والوصفات الرخيصة ، رحمة بعيون اطفالنا او رأفة بامهاتنا اللاتي يمتن ببطء ، وكان التاجر اليهودي نواف ، قد اعطانا ـ ابي واختي سهيلة واخي الذي يصغرني ـ حبوبا صفراء لم نعرف ما تحويه من مركبات طبية ، فتجرعوها مع الحليب والشاي ، ثم اذا بأختي « سهيلة » تقع مثل دمية مجوفة ، ولم تنهض لساعتين ، اصبحت بعدها عاجزة عن تحريك فخذيها ويدها اليسرى ، ثم غفا بعدها أبي ولم نفرق بين نومه ويقظته ، مما جعل البيت في حال يكون الرثاء لها واجبا طبيعيا .

كانت الرائحة تسري في العروق .. لم ينفعنا الماء والصابون ، ولم تفدنا الحمامات الحارة ، او الثياب النظيفة ، بل ان الكثيرين من ابناء محلتنا ، لم يصدق ان اليهودي نواف ، قد تسبب في الشلل الذي اصاب اهلي ، كانوا يهرعون اليه كلما وجدوا باب السيد غضبان مغلقا ، واصبح اليهودي نواف ، البديل الذي يتسابقون اليه ، سيما ان السيد منهل يغلق باب بيته عدة مرات في الليل والنهار ، وهما ، معا ، يتعاطيان المهنة ذاتها ، الضحك على ذقون الغفلين من آبائنا وامهاتنا ، توهمت بانهما معا ، قادران على اخصاء الرجال في عكدنا ، كي يتمكنا من العيش في جنة خاصة يمرحان في امتارها التي يحدها الجاموس والخراف وروث البقر المنثور هنا وهناك ، والتي يسكنها العاقول والشوك والجوع ، والتي اذا امطرت الدنيا تفوح بكل الروائح النتنة .

بهذا ، كان الخوف يتمطى في اجسادنا ، ليس من هذين الرجلين ـ حيث ان اهلنا ما كانوا مؤهلين لوعي شيء ما ، مهما صغر حجمه او قلت اهميته ، كانوا كتلة من غباء تتحرك في كل الاتجاهات ، راضين بكل ما يجيء به (القدر) المكتوب ، قانعين اولا بالله والمؤمنين ، صابرين على البلوى مهما كان لباسها ـ لكن خوفنا ينبع من تزايد العيوب في هيئاتنا وتكاثر الموت في البيوت التي تحيطنا ، لقد نشانا خائفين كأهلنا ، صرخت في وجه ابي ذات مرة ، وانا احس بانتهائنا ممهدا وبسيطا :

ـ لماذا جئت بنا الى هذه البقعة المهلكة ؟ لقد خسرت حبنا ايها الاب المسكين .

قالت امي وهي تدفع بي :

ـ اخرس ، ايها القواد الوسخ .

حدقت في وجه امي ، كنت اريد ان امد يدي وانهش لحمها من فوق عظامها ، ولكن وجه ابي بين الحياة والموت يتوسل جدا ، كانه يريد ان اغفر كل شيء ، لكن وريدا من اوردتي احسه يتمزق فيّ ، ان لم افعل ما يمليه عليّ ضميري ، لذا ، رحت اهمس بغضب قاتل :

ـ هل اخرس ؟ هل اخرس ايتها العجوز الدميمة ؟ هل تدرين باني رأيتك تدخلين الى بيته ، تتلفعين بالعباءة كأني لم اعرف من تكونين ؟ هل اخرس ايتها الهرمة .....

نظرت امي الى الدماء التي تصاعد جزء منها الى رأسي ، ونظرت بدوري الى هيجان الدم في اعلى ملامحها ، وراحت تجرني من يدي ، تهرع خلف الباب ، وهي تموء ببحة مريضة :

ـ من الذي تعنيه ايها الولد ؟

نفرت من ملامحها التي تصلبت ، كدت احس بعطف على ذعرها وقد تناثر من بين مسامها ، حتى انها مسحت خديها من العرق الذي تصبب في اعلى جبينها ، وكاد ان يسيل الى حنكها ، لكن الغضب الذي لفها ، لم يترك لها اي نصيب من الهدوء والتروي ، جاءت نحوي تزعق مثل غراب جريح :

ـ قل لي ايها الولد الملعون ، بماذا كنت تهذي ؟

اجبت ، وانا ابدأ في طمس وجهي خلف اصابعي ، ورحت ابكي :

ـ انت تفهمين ، تفهمين جيدا .... ماذا كنت تفعلين في بيت السيد غضبان ؟.. اذا كنت مريضة ، فهذا شيء طبيعي ، لكن ، لماذا اختفيت ، حين ادركت باني موجود هناك قرب البيت ؟

راحت امي تمسح العرق الذي تخمر تحت فكها ، كنت ارفع وجهي على مهل ، وشممت رائحة انثوية انتشرت كالفواح من بين عروقها الصبية ـ كانت امي تعيش في كل ثانية تمر ، كانها لم تفارق سن الثلاثين ، مع انها قد تجاوزت الخمسين من سنوات اربع ـ ورحت ابتعد الى الخلف ، بينما اخذت امي تجر اطراف ثوبها بعد ان تبلل في ثغرة من ثغور البيت المليئة بالماء الآسن .

وما ان اتسعت المسافة بيننا ، حتى سمعتها تئن بصمت جارح ، قلت لنفسي :ماذا دهاني؟ ما شأني بامي وهي اكبر مني وتعي جيدا ماتفعل، هل تراني اذبل في الشك الذي يقتلني ؟

كان انينها قد تصاعد ، مما جعل الصمت عليه اثما فاحشا ، لذا، كنت ابكي معها ، شأني في هذا ، شأن اي طفل احمق تلعب فيه العواطف الرخيصة ، ولما رأتني ابكي ، قالت بهمس ملؤه الخجل :

ـ لقد ذهبت الى السيد منهل غضبان ، كنت اريد منه التستر ، وقد اطاح بوجه ابنتنا ، كنت اريد منه .... من ترى يفكر فيها الان ؟

كان الذي يمر في قصباتها ، اعنف من جرح مملح ، لذا ، جرها الغضب عليّ ثانية ، الى ان تشتمني ، ولكن ، دون وقاحة :

ـ كل هذا يجري وانت تعرفه ايها الطفل السافل ، لقد كنت معها ، هل نسيت ؟

وابتلعت اهانتها ، وكنت قد كففت عن البكاء ..

★ ★ ★

توقفت الهجرة التي بدأوها بعد وفاة التاجر اليهودي الرابع ، وكان السيد منهل غضبان ونواف ، قد تمكنا من الغوص في بيوت عكد المجادي ، بل تمكنا من النزول الى ادق اوردة الناس واوهموا كل فرد في المحلة بأهمية البقاء فيها ، بل ان اليهودي نواف ، كان قد ضاجع اغلب النساء المتزوجات ، وازال بكارة اثنين من بناتنا ، ليجعل البقاء في جنته السوداء ، مبنيا على الرغبات المريضة ، وعلى الجوع الذي ينهش في النساء ، وقد اصبن بامراض لم تجرؤ اي منهن على ذكرها مما جعل الرجوع اليه ، طبيعيا وهاما .

منذ خمسين سنة تمكن اليهود ، من اللعب على رؤوس الغفلين من ابناء عكدنا ، ولم تشا اية صدفة ، على كشف العيوب التي يعاني منها كل الموجودين ، بيد ان السيد منهل واليهودي نواف ، كانا اعمق

شرا من البقية الذين اكتفوا بالقليل ، والذين كانوا يهابون المجهول، ورغم كل شيء ، لم تردع الصراخات التي اطلقتها أمي وسواها من النساء ، هذين الرجلين ، حيث انهما يملكان من البراءة ما يعجز أي منا على خلق ذنب واحد ضدهما ، بل ان كل النساء اللائي وقفن في وجه السيد منهل ونواف ، أصبحن بين ليلة واخرى ، من اقرب المحبين ، ورحن يدافعن عن كرامة الرجلين ، اذا ما قيل عنهما مايسيء. مما جعل الجذور التي يستند عليها كل منهما ، اقوى وامتن مما كانت، مما زيّد في رغبة الناس ، التقرب منهما ، وبناء دورهم لصق داريهما تماما .

ومثل ما قيل عن السيد منهل ، قيل عن اليهودي نواف ، وتجرأ اليهودي على بسط نبوات طبية في عرض المحلة وطولها ، مما جعل الحب له يزداد وقارا وخوفا ، وتفاقمت بين أهل المحلة اشاعات صغيرة ، يغزلونها في الليل والنهار ، وتحولت ـ بقدرة قادر ـ الى حقيقة يذكرونها كالصلاة ، فهو قدير على تنطيق الاخرس ، وتنهيض المشلول ، وهو أقدر خلق الله على التكهن بالجنين في بطن أمه ،بنتا كان أم ذكرا .

كانت الرائحة المخمّرة تسري في النفوس ، وحدها كانت الرصيد الذي يعتاش عليه اليهودي نواف ، الذي غلبت نبواته على السيد منهل غضبان ، أصبحت الرائحة المركومة في كل بيت ، الزاد الحقيقي الذي يأخذونه مع كل وجبة ، حتى انكمشت الجلود وتصلبت على عظامها ، وبات من الصعب ان ترى غير هياكل جوفاء وعيون جاحظة أو غائرة ، ووجوه صفراء تملؤها الندب والدمامل والفالول ، واذ تراهم مجتمعين ، قد لا ترى ثمة ضحكة ، أو حتى مجرد حركة في الوجه .

رايت الموت في كل عينين ، هجسته لصقي ، أمشي في اي زاوية من زوايا المحلة ، فأرى ـ في رأسي المتعب ـ كيف ان الدماء قد نشفت عن الوجوه ، أحس باللوعة تخنق صدري ، ابكي ، ثم أخجل منبكائي، كنت أشك جدا ان يكون رجال عكدنا يمارسون الحب مع النساء ، اية قدرة في هذه الاجساد المريضة ؟

انه الموت : يقبع في كل عضو ، وفي كل عصب ، بل وفي كل مسامة من المسامات التي يتنفسون منها .

عدت بذاكرتي الى صديقي اليهودي الذي مات ، والذي اعطاني بدلتين من أجمل ما لبست ، كانت ثيابي الداخلية التي البستها ، هديته الجميلة (ترى أي عار أحمل بين ثيابي) كنت احس بأنه يداعب اختي الصغيرة ، وحاول أن يجذبها الى داخل دكانه ، واراد ان يمنحها ماله ورجولته ، كنت أنا ـ أخاها الذي تحب ـ اعرف كل هذا ،لكن البدلتين والثياب الداخلية الغالية ، كانت ...

ـ قلت ، أي عار ألبس ، أية لعبة اصبحنا في هذه المحلة القذرة ؟

والآن ، كلما أحدق في اختي المسكينة وقد شلها اليهودي نواف، أجدني بين اثنين من اليهود ، واحد أوهمني بالحب وآخر أوهمنا جميعا بنبوات طبية ، كنت احس نفسي بينهما ، المسؤول عن كل شيء، المسؤول عن أيما خطا .

كان غبائي يتكلس في عروقي ، كنت أحس بالرائحة المخمرةتشملني ايضا ، تأخذني الى بحرها الغائطي العميق ، وأنا وحدي ، أتلوث من كل شيء يحيطني ، وأرى نفسي خاطئا :

ـ هل تراني كنت مذنبا ؟ ماذا أفعل ؟

كنت التفت الى كل الجوانب ، وأنا اعجز عن ايقاف نفسي :

ـ ماذا افعل ، انه ذنب ابي ، ولكن : اليس عليّ فعل شيء ؟ لقد جرونا الى الموت والخراب ، فماذا افعل وحدي ؟ وحدي ، ماذا أفعل ؟

وتكور في دخلي حجم الذعر ، أهجسه مثل بالونة تكاد أن تنفجر الان ، او بعد ثانية ، او ... مما جعل القلب ينبض في امكنة جوفاء من جسدي ، كأني بين دقيقة واخرى أتهيأ للموت بكل اعضائي.

ـ أعرف ان موتي هو الفرح الذي يلبسه اليهودي وغضبان.. ان موتي من المنافع الرخيصة !

ولم يكف الشهيق الملوث بالروائح والموت ، من النفاذ الىأمعائي فيعلكها مثل ذئب جائع ، ليس بامكاني ان أكف عن الشهيق الذي أعماني ، والذي راح يدفع الى نهش رأسي من أثر المرارة والعطف والغضب ، ماذا عليّ ان اعطيوابي في التسعين ، فعيد في البيت يتارجح بين الحياة والموت (ينتظر الملكين الصالحين ليجيب عما يريدانه من اسئلة ينسل بعدها مع المساكين من ابناء النار) وتسع عشرة أختا لم أجد في ملامحن سوى الفسق والجوع والميوعة ، وليسفي أعماقهن سوى الشهوات الرخيصة لكلب عابر أو زائر غريب ، وقد مررن كلهن ببيت السيد منهل ، والتي ابقت على بكارتها اعطت عريها ونهديها وبقية ما تملك من انوثتها ، والتي انحسرت بين فخذيه ، لم تزل على حالها ، توهمنا جميعا بانه أطيب خلق الله قاطبة ، وانها من دونه ميتة من زمان وزما ....

ونحن ، تأصلنا على الرضا والقناعة ، سيما وبناتنا يجئن بكل عطايا السيد منهل ، من برتقال وموز وتفاح ، وربما تاتي احداهن بقطعة لحم سمينة ، أو قطعة من الجبنة الكردية المملحة ، فناكل أولا ، حتى اذا انتهينا نكيل عليهن السب والشتيمة والعتاب المر ، كي نحس ـ اقناعا لنفوسنا المريضة ـ باننا قلنا ما علينا ، وانواجبنا ـ يكفي ـ أن نقول شيئا ونسكت ... بل اننا في أزمنة تعاقبت،نسينا ان نعاتبهن او نصرخ فيهن ، فكلهن يجئن من السيد غضبان او من اليهودي نواف ، منهكات من السكر والعناق والـ .. وليس من الذوق أن نرهق أيا منهن ، ما دامت من الوداعة ، انها لم تنس اهلها ولم تنس كيس الفواكه والمؤونة الذي تتلقفه امي ، وهي لم تزل عند الباب .

ـ ترى : من علمنا أن نوافق هكذا ؟

كنت اهجس نفسي منشطرا ، رأسين وعنقين ، واعداد منثورة من الايدي ، كنت اريد أن أهرب ، او أفعل اي شيء ، وانقذ هذا الجسد الذي تخونه رائحة الضمير ، اتوجس خوفا من العيون التي تحدق بي ، كل وجه يراني أحسه يقبض قلبي .. يمسكه ويدوس عليه ، اسمعه ينهق مثل حمار مملوء بالشرف :

ـ القواد الذي يتاجر فيهن ، هاهوذا ..

ـ كلهن بنات ، انها لصفقة لم تفعلها الطبيعة من قبل ..

ـ ماذا تفعلون في بيوت اليهود ، أيتها الكلاب الجائعة ؟

ـ دعهما يلهوان على افخاذهن الجميلة ..ليحي منهل غضبان ، وليعش نواف اليهودي .. ولتسقط ايها الذب الفارغ .

كلها تنفذ فيّ ، تخش مثل أعناق النخيل في صدري ، اريد ان اهرب ، لكن اللعنة تلحق بي ، كأني وحدي من حمل الثقل عنكواهلهن، كأني انا الذي خلقتهن ، وان عليّ ان احدد ما يفعلن ،وانا اصغرهن عمرا أو أكاد ، وليس لي أي نفوذ عليهن ، سوى الجرح الذييشعرن به في أعماقي ، وليس لهن أن يداوين جرحا ، يعرفن جيدا ان الثمن الذي يدفعنه هو الجوع لعائلة باكملها .

* * *

عدت الى البيت ، متخما بكآبة لاحد لها ، قطعت كل رغبة في العيش ، فرأيت أول ما دخلت ، أمي واثنتين من شقيقاتي ، ينوين الذهاب الى الكاظمية ، علهن يخففن شيئا من ذنوبهن ، رحت احدق في العيون التي تعلقت عند اعلى رأسي ، وفجاة ، لوثني عصب من

اعصابي ، تشذب عن كل تراكماته الصدئة العتيقة ، وراح يدفع بي الى الزعيق والنباح ، كنت أعوى مثل كلب وانا اتنقل بين عيونهن التي راح الخوف يأكلها بشراهة ودهشة :

ـ يكفي ، يكفي ايتها الهرمة القبيحة ..اين تاخذيهن بعد ؟ لقد هشمتن وجهي ولم يعد لنا من امل في شيء .. اين تذهبن الان ، هل تردن ان توزعن أجسادكن على ارجاء بغداد كلها .. يكفي ، ارجوكن يكفي ، لقد لعبن فيّ ولم تهجسن اي عار يلوثنا ..

همست اختي في اذن امنا :

ـ ان اذهب معكن ، ان به لمسا من الجنون ، ماذا ألم بـه كان سليما في الصباح ، ولم يكن بمثل هذه الحماقة من قبل ؟

صرخت بها :

ـ ايتها الدمية المتسخة ، لم اكن احمق ذات مرة ، لقد نشفتن ماء الوجه عنا جميعا ..

قالت امي بدعارة امراة رخيصة ، كانها تحاور انسانا لم تعرفه :

ـ واين كان ماء وجهك طول الوقت ؟

تسلقت بعيني هيكل امي من اسفلها حتى عينيها ، لم احتمل الفسق الذي تلوكه بين اسنانها ، فجئت بكل ما احمل من غضب وسوء ، ومددت يدي الى عنقها ورحت أدوس عليه بكل قوتي ، بينما وجدت شقيقاتي وقد اخذن يصرخن ويدفعن بي ، وما ان رأيت وجه امي يتحول من لون الى آخر ، حتى لوثني خجل قاتل ، واردت أن اخفف من ثقل فعلتي ، فلم اجد منفذا الى قلوبهن ، مما جرني الى البكاء ، ومزقت ثوبي نكاية بنفسي وخلعت حذائي وكسرت بضعة أوان في البيت ، وانا ابكي ، بدماء حارة ، ولما نهضت امي ، ذهبت الى فراشها دون ان تنبس بشيء ، واغلقت اختي الباب ، وصعدن الى الطابق الثاني من البيت وهن ينظرن اليّ ، كانهن يبصقن فيّ ، او كن يبصقن في اعماقي التي توحلت دون شك .

فكرت ـ وقد تخشب رأسي ـ ! ان الجوع الذي ينهش فينا ـ ونحن عائلة دون معيل ، ليس لنا من وارد ثابت غير اجساد بناتنا وتقاعد جد ضئيل لا يسد جوع معدتين ـ كان طبيعيا ان يجرنا الى خسران انفسنا ، وتسليمنا البنات لكل الرجال الراغبين ، بل اصبحنا برحابة صدر ومودة ، نتملق كل الزبائن الذين يجيئون للسؤال عن احداهن اذا ما تاخرن ليومين او ثلاثة ، كنا نضحك في ارجاء البيت ضحكا مسموما ، اذ نجيب على اسئلة الغرباء ، ونحن نعي جيدا ان البيت قد غدا ماخورا سهلا ، ومشهورا بين مئات البيوت التي تدعي الحرص والشرف الرفيع .

ثم اذا بنا عرضة لتقولات جارنا ، الذي جاء يطرق الباب ذات مساء ليهمس فينا بحب ومودة ممزوجين بالقرف :

ـ لقد اتفقنا ان نرجوكم على ترك المحلة .

سالته امي :

ـ لماذا ؟

ولم يجب عليها ، فقد كانت تعرف جيدا ما يعنيه .

كنت اعرف ان جارنا يوطيء بعينيه حسب اجساد بناتنا من خلف خصاص نوافذنا الواطئة ،يحدق فيهن لساعات .. دون ان يجرؤ في ليلة ما على اقناعهن او تفريغ همه في واحدة منهن . ثم اذا بنا نفكر في حل ينقذنا من لسان جارنا ومن عيون ابناء عكدنا الذي صار عكدا للعهر السري والموت البطيء .

ومثل النيازك التي تقلع النخيل اذا ما وقعت على جذرها ، هجست شيئا يقلعني من هدوئي ويحجزني عن رغباتي ، وحالما اندلقت في اعماقي تلك الفورات النارية القاتلة ، رحت أصغي لصوت ضميري، وافتش في عقلي عن خيط مبتكر امشيه الى اختيار اذكى .. فوجدت الموت : صديقا وديعا ورائعا ، كنت أصغي الى الصرير الذي يدور في الهواء الملوث ، أسمعه يوحي بالموت ، أسمعه يوحي بموتي أنا ،اسمعه يقنعني بموتي ، أسمعه .. ثم ارتاح لنبرته الودودة التي الهبتني .

كنت اريد ان اهيىء نفسي لموت نقي اكون به مألوفا مع البراءة والنبل ، ان يقال باني بريء من العائلة الفاجرة ،او بريء من العكد الذي شل راسي وخدرني مثل مريض .. بريء من الفسق ، ومن البيع والشراء باجساد شقيقاتي ، بريء من الدماء التي تسري في شرايني والتي دخلت فيّ من ابي دون ارادتي ، بريء .. ابحث عن موت اسهل من خوفي ـ فقد اختار انتهائي ، واذ احققه يحشوني ذعر اقوى ـ ان عليّ ان انهي كل شيء يسمى باسمي ، وانهي كل خيط يربطني بافراد عائلتي مهما كان باهتا او معدوما .

رحت اهتز برعشة لم الفها .. انتقلت من يقظتي الى حلم خاطف ، يجيء بين دقيقة واخرى ، ويمحي ، ثم يأتي الي ثانية ويمحي .. فأرى نفسي بين يدي منهل غضبان وهو يعري جسدي،ويفتح فمه بكل سعته ويزمجر في وجهي :

ـ امك في الغرفة،ايها النجس ،امك في الغرفةتريد ان اضاجعها.. امك في بيتي ايها الطيب الوديع . امك ، امك ، امك في ....

ويكبر حجم الصوت في خلايا رأسي ، امك ، أيها النجس الطيب، في الغرفة ، ها ، ايتها العائلة الخربة ، ماذا فعلتم في الدنيا ، امك في الغرفة ، ثم يخطف بين الهسهسات والعوى وجه اليهودي نواف، وهو يحمل في يديه أختين من أخياتي ، يمسك تهد هذي ويفتح فخذي تلك ، يلعب فيهن كما تلعب في الكرات الجميلة .. كان الرأس ،رأسي، قد أوشك ان يقلع نحو دنيا اخرى ، متفجرا من هذه التفاقمات الدموية التي سحقت جبروتي .. رحت امسك جمجمتي ، اصرخ عاليا دون احساس باي شيء آخر :

ـ ايها الرب الطيب ، هل تراك تجرب فيّ نارا جديدة ؟ يكفي ايها الرب .. ليس هذا الرأس ولا هذا الجسد الذي تختار ، ثمة في عكدنا من المهابيل ما يكفي، جرب فيهم ، فقد فقدوا كل شيء .

* * *

جربت قبل موتي أن امحو بضعة آثار لا اريد لها ان تبقى من بعدي ، لم اجد وازعا يقنعني بموت مجاني ، دون ان امد يدي الى عنق من اثنين ، اما عنق السيد غضبان او اليهودي نواف ، أصبح كل فعل امارسه مفروضا عليّ من قوة لم أتكهن مركزها ،فانا احس بحاجة الى القتل ، وحاجة الى موتي ، وحاجة الى دفن عائلتي ، وحاجات اخرى افكر فيها كلما تذكرت السكين التي تحت ثيابي ، ومررت من خلل الصمت الذي يلف عكدنا بعد العاشرة ليلا ، وطرقت باب اليهودي ببالغ ما اعرفه عن نفسي من ذوق وادب ، ثم اذا به يضحك لي بوقار وابوة ، وهو يقول :

ـ تفضل ايها العزيز ، ماذا وراءك في هذا الليل ؟ لم يات احد منكم طوال النهار ...؟

لم اجد اي جواب ، كانت السكين تحت ثيابي ، تعلقت عيني بعينيه ، اردت ان انبس بشيء ما ، فلم اجد اي حرف انطق به ، مما جعل اليهودي يظن باني واحد من الذين يهرعون الى الرجال واني مثل عائلتي مليء بنفس جوعها فرأيته يغلق الباب ، ويحمي ظهري بيديه الخشنتين ، ثم ياخذني الى غرفته وهو يهمس من خلفي بحب دافيء :

ـ ماذا كنت تريد ؟ لماذا انت صامت ؟

وأسعفني عضوي اذ توتر فجاة ، ورحت اهمس بخجل تعمدته لتسوي :

ـ اريد ان اتبول ..

ودلني ، ثم عاد الى غرفته منتظرا مجيئي .

اخرجت السكين من تحت ثيابي ، نظرت الى نواف من ثنية المرحاض ، فرأيته يقرأ في كتاب ، ثم جئت اليه ببطء نملي ، ولما اصبحت قريبا منه ، احس بي ، مما جعل انتظاري ثانية اخرى: مهلكا وسخيفا ، لذا رحت امزق في عنقه وانا اشهق بالرعب ، امزق في سرته ، واشهق بالخوف ، اقطع في شرايينه المرئية وغير المرئية ، واجرجر نفسي الى خارج البيت ثم ارجع ثانية لانهش فيه ، أخاف أن يكون موته ناقصا فينهش لحمي أهل محلتنا ، رأيته بعد دقيقتين مجرد بركة من الدماء ليس لها وجه ، ليس لها شريان ، ليس لها وريد حي ، بركة من الدم الذي يتقطر من سكيني ، تفور من المسامات التي شربت دماء اختي وابي ، كنت احس ان هذه البركة الدميّة، خزينة من الترف الماجن والنبوات التي خلقناها بانفسنا واكذناها بانفسنا ، كنت واقفا عند جثته ابكي ، ليس عطفا عليه ولا رافة به، كنت أحس ان قتله اقل ما فعلت ، وان عليه أن يتعذب ، وأن يطول عذابه بيننا ، ثم التفت الى باب البيت وخلت انه قد فتح،ولما جئت كي اغلقه ، وجدت انه مغلق ، ومرت بضع ثوان خلت فيها ان الباب لم يزل مفتوحا ، فجئت لاغلقه .. ثم اذا به مغلق ايضا ، اخفيت السكين في سرداب البيت ، ولم اغسلها من البقع التي تخثرت عليها، وتهيأت لترك البيت ، كان الباب يوحي اليّ بانه مفتوح تماما ، وكلما اقتربت منه رأيته مغلقا كما تركته اول مرة ، وتهيأ لي بان عقلي قد تلوث حتما .

خرجت من بيت اليهودي نواف ، كانت ملامحه تحفر فيرأسي،كنت اهتز من الخوف ، في مخيلتي فعل واحد يتكرر ، يشطرني الى اثنين، أرى في كل ثانية ، باب اليهودي وقد فتح بكل علوه ، من خلف الباب يحدق فيّ اليهود الذين يسكنون في عكدنا ، يحملون المعاول والمكاوير بغية قتلي ، الباب ، اغلقه بيدي ، ثم يفتح ثانية ، امشي وانا احمل في علبة رأسي هذا الكابوس الذي يسافر في عروقي ، كنت اريد الوصول الى بيتي ... أن أرمي برأسي على مخدتي ، عل هذا الرعب يخف عني ، واحمي مخي من هذا الدبيب السرطاني القاتل .

ما أن دخلت بيتي ، حتى صرخت أختي :

ـ ما هذه الدماء ؟

لم اكن قد فطنت الى بقع الدم ، بل لم افكر ان دم اليهودي قد تناثر حولي ، حدقت في اختي وهمست بود هائل :

ـ اغسلي ثوبي ، وأرجوك الصمت ايتها العزيزة ..

أخذت ثوبي وهي تهمس في اذني :

ـ ترى من قتلت أيها الشقي ؟

كانت اختي التي تغسل ثوبي ، أجمل انثى دخلت فراش نواف، وكان اليهودي بالنسبة لها : بيتا وعشيقا ومطعما ، وكان لها عيدا نتباهى بالعيش فيه كل صباح .. كنت اسمعها تقول :

ـ ترى ما الذي فعلته بنفسك أيها المسكين ؟

* * *

كان الخوف ، بعد مقتل نواف اليهودي ، هو السبب الاول في هجرة اليهود من عكد المجادى ، فها هو اليهودي الخامس الذي يموت في مساحة ضيقة ، مات بها اربعة من قبله ، مما جعل الشك يفتك في اعصاب اليهود فتكا عنيفا ، وكان موت اليهودي نواف قد اصاب نفوس النساء ، حيث خرجن للنحيب عليه ، وتعالت الحناجر تندب الرجل الذي أغدق وقته وماله ورجولته ، والذي مات مثل كلب،ورحن يصرخن في السماء ، ان تصعق القاتل وتمزقه بينهن ، كي يشفين من الحقد الذي راح يأكلهن ، بل ان امي كانت في اول طابورهن ،واختي تحدق فيّ كأنها تقول : أعرف انك القاتل ، لقد غسلت جريمتك بيدي.

بصقت على الارض ، كانت اختي التي اعتادت على فراش اليهودي نواف ، تحدق فيّ وتمطرني بحقد لم انكهنه جيدا ، وتهمس عن بعد فائق :

ـ أيها القاتل ، أيها القاتل ، أيها القاتل .

كنت اريد التخلص من عينيها ، فخرجت عن طريق المعزين ، كي اترك نفسي الى فضاء اوسع ، واذا برأسي تدور ، ثم اذا بي قبالة اختي ثانية . كان خيالي قد تلوث من جديد، ، أحس بأوردتي تتفكك ، أهجس كل شريان في رأسي يتباعد عن أيما شريان في جسدي ،كانت الجرثومة التي نخرت جلدي والتي انتشرت فيّ من الروائح المخمرة السائلة قد تغلغلت الان في مساماتي ، احس باني لو امسكت اية قطعة من جسدي لطبقت على وساخات من الهواء المعفن والقمل المجهري، حتى بات مخي معلقا في رأس سيىء ، ورأسي معلقا على جسد اجوف، وان بقائي لن يدوم سوى يومين او بضعة ايام ، وانه سيدبل مثل ديك أصابه (الضريك) وهانذا اعيش موتي ، المسه ، أحدق فيه، أشمه جيدا ، احس موتي وانا الصق عيني بعيون اختي وامي وبقية النساء اللائي خرجن في جنازة اليهودي نواف ، والذي كان على بعد منها السيد منهل غضبان ، الذي هيأت له ـ دون وعي ـ جنة بدون منافس ، لا بد أنه اعمق ابتهاجا من أي طاووس فارغ ؟

كنت اهمس في نفسي كأني أصرخ في وجه السيد منهل :

ـ لقد قتلت لك اليهودي ايها الكلب ، بينما انت مثلي ، من نفس الدين الذي ركبوني عليه منذ الطفولة ، تمتص دمي مثلما فعل اليهودي.. ولكنك تحيا مطمئنا ، فانت في ارض يسمونها أرضك ايها الرجل البغي ، ياسرطان هذا العكد ..

كانت اختي تحدق فيّ لم تزل ، غمزتها بعيني ان تكف عن التحديق بي .. لم أكن اعي ما يدور بداخلها ، لم اكن افهم ماجرى فجاة ،لم اكن احلم حتى خطأ ان تفعل اختي ما فعلت ، لم أستطع ـ وانا اموت الان ـ ان اصدق كيف تجرأت اختي على أن تصرخ في قلب عكدنا ونحن كلنا بين المشيعين :

ـ انه اخي ، أخي هو القاتل ، صدقوني ، هذا الصغير الاحمق.. انظروا اليه ، لقد جاءني بثوب مبلل بدماء نواف ، لقد غسلت دمه بهاتين اليدين ..

رفعت يديها وسط هياج دموي ، تصرخ ملء حنجرتها : انظروا اليه ، انظروا اليه ، انه أخي ، ولكنه القاتل فعلا . وكيف لهم ان ينظروا اليّ ، ترى ما الذي فعلته ـ انا ـ باختي ، كيف لي ان ارد على ما تقول ، ماذا كان يجري في عقلها الملوث يا الهي ؟ كانوا خلفي، يطاردوني ، اختي : لماذا وهبتني هذا الموت المجاني السيىء ، لقد نزلت رائحة الدماء وروث البقر اليابس في صدرها ، ربما اكلتها مناحات النسوة وهياج العيون ؟ وهم خلفي ، يصرخون ، كأنهم وجدوا فرصة للسعادة . كنت اجرى .. اخاف ان ابطيء لثانية ، فينهشوني.. اجري ، اجري ، اجري ، اجري ، تمر في الرأس مئات من الوجوه، الدميمة والجميلة ، الوجوه التي أحب ، والوجوه التي أكره ، مئات الوجوه تمر في الرأس ، اعبرها الى خوف اعمق من كل ما عرفت . لم يعد رأسي ملوثا بشيء . هانذا اعي كل ما يجري حولي ، انهم يحملون الهراوات والاحذية والحصى والحجارة ، والنساء يحملن قباقيبهن وفستقهن ، ويجرين خلفي ، النساء اللائي نمن على فراش اليهودي.. يجئن الي ، يردن قتلي ، أنا الذي اقفل في وجوههن بابا للرزق وبابا للحب .. كنت أجري وأعرف اني ميت دون شك ، غير اني بهروبي

هذا انما أقلل العدد الهائل الذي يجري خلفي .

ترى : اي خوف هذا الذي في الروح ؟

لقد سمعت صراخات أعلى ذعرا من النيازك والعواصف الرعدية، كانوا ينبحون من اعماق بؤسهم ، أسمع الهدير يجري صوبي، واعرف انهم اذا ما مسكوني ، فالموت يجيء بطيئا جارحا ورهيبا .. تناثرت حناجرهم حولي ، فوقي ، تجري فيّ تماما :

ـ أين تراك تذهب ؟ليس من امل بعد ..

ـ أيها المغفل ، مهما اسرعت عنا ، لابد أن يجيئك الموت ..

ـ قاتل ، قاتل .

كنت قد هزلت جدا ، طالت المسافة التي قطعتها ، لم أعد احس برجليّ ، كانتا تتنقلان لوحدهما ، من متر الى متر ومن محلة الى اخرى، حتى خرجنا الى الشارع الرئيسي ، وهناك تنفست هواء انقى ،نظرت الى الخلف وانا في هياجي وذعري فرأيت الناس يزدادون هياجا ضدي ، يزداد العدد الذي يجري ورائي ، شعرت ان بغداد كلها تجري ضدي ، تريد أن تقتلني ، شعرت ان بغداد كلها قد احبت اليهودي نواف ، وانها من دونه كامراة فارغة ، كنت اعشق ان يمهلوني بضع دقائق اصرخ فيها ، اقول فيها شيئا ، اي شيء ، ثم بعدها ليأت الموت والهراوات المخيفة .. اريد ان اقول شيئا ، لكن ما هجسته في رأسي ، كان قد خفف من قوة يقظتي ، ثمة من راح يرميني بالطوب والحصى ، فزلقت وكدت أقع .. لكن حظي كان قويا الى تلك اللحظة، تمكنت من الجري ثانية ،بيد اني رأيت نفسي وجها لوجه قبالة السيد منهل غضبان .. وهو يمسكني من يدي وشعري ويأخذني الى الناس الذين كانوا يلهثون من الركض .. جرني بعنف لم اتحلل منه . وسلمني اليهم .

من عكد الى عكد ، ومن رائحة الى رائحة . تمكنت من الخلاص، وجه اختي يمر في عروقي ، امسحه كالعرق العالق فيّ واجري ، منهل غضبان ، وماض من الحقد والفجور والزنا ، احسه يتنمل في جسدي ، اهرب من شارع الى شارع ، من حزن الى حزن . كانوا يجرون خلفي .. ثمة من يرميني بحجارة او حصاة ، تمكنت من الركض صاعدا الى الروح التي هجرتني . كانوا يمدون ايديهم الى لحمي ، ينهشون فيه ـ هل تراني تمكنت من الخلاص جدا ؟ـ كنت ابكي ، انظر في فراغ هائل ، رأيت نفسي قبالة وجه السيد غضبان ،راح يمسكني من يدي ، يسحبني من شعري ، يأخذني الى النساء اللائي رحن يلهثن من النباح ورائي ، جرني بلؤم عجيب لم استطع فك نفسي عنه، ثم سلمني بين ايديهن ..

من آه تجرّح فيروحي ، الى اه تجرح في قلبي ، كنت اريد النجاة ليومين حسب ، اريد ان ارى امي واخي وتسع عشرة بنتا اسمهن شقيقاتي ، ارى أبي قعيد بيتي ، أرى شيئا من جثث الكلاب والحمير التي تفسخت ، اريد ان ارى اي شيء سيىء .ان اعيش لوقت آخر، عل شيئا يفاجئني فافتح صدري للموت بنفسي ، لكن .. هشمني قبقاب مدبب ، راح ينزل فوق وجهي :

ـ ايها القاتل ، ها أنت بين ايدينا ..

رأيت وجه السيد غضبان ، يضحك من جسدي الذي مزقته النساء ـ امك في الغرفة ، عندي ـ ثم شممت رائحة الورد ورائحة الله ، وتسلل نحوي شذى الروح ، يمرق في داخلي ، وانا اريد النجاة ليومين حسب .. توزعت بين رائحة الورد ورائحة الزيتون الخائس ، هل تمكنت من الخلاص ؟ هل استطعت حذف موتي ،ها هو ياتي من كل جانب ، احسه في كل يد تمتد اليّ ،في كل وجه يحدق في دمي ، في ... ورأيته يجرني من شعري ، لم أعد اقف على شيء، كان السيد منهل غضبان يمسكني من يدي وشعري ويأخذني الى الناس الذين يلهثون من الجوع والقفل ، جرني بعنف لم أستطع فك نفسي منه .

ثم سلمني الى .....

بغداد — عبد الستار ناصر

* عكد المجادي : أي « درب الشحاذين » . زقاق قديم جدا من أزقة بغداد ـ الرصافة .

لم يزل هذا هو اسمه حتى الان ، وقد كان اليهود والمسلمون يسكنونه معا قبل سنة ١٩٤٨ .

دار الآداب تقدم

فاروق شوشه

في ديوان

العيون المحترقة

قصائد جديدة يتعانق فيها العنف والحنان

صدر حديثا ٢٥٠ ق. ل.